



The Institute of Ismaili Studies

العنوان: ميثافيزيقية حوار الأديان: وجهة نظر قرآنية

المؤلف: الدكتور رضا شاه- كاظمي

المصدر: قُدمت هذه الدراسة في مؤتمر "الطرق إلى القلب: الصوفية والشرق المسيحي"، 18- 20 تشرين الأول، 2001، جامعة كارولينا الجنوبية، الولايات المتحدة الأمريكية.

ملخص:

يعرض هذا المقال القرآن كمصدر للحوار بين النظم العقائدية المختلفة. نجد من خلال التأويل الذكي لمختلف الآيات القرآنية، في التقاليد الصوفية، أن القرآن لا يدعم فقط، بل ويشجع بكل إخلاص تعددية الأديان في عالم اليوم، في حين يعارض بشدة النزعة القومية والتعصب الديني. في محاولة لتحقيق التفاهم والتقدير والإنسجام، لا بد من أن يسلط المسلمون الضوء على ما يوحد بين جميع الشعوب في إطار النظم العقائدية المختلفة وذلك للدخول في حوار بناء ومبدع مع الآخرين. يأمر القرآن الكريم المسلمين بفهم الأديان والشعوب الأخرى كوسيلة لتحقيق الإستنارة الروحية: إذ أن هنالك ارتباط وثيق بين معرفة الذات ومعرفة الآخرين ومعرفة الله.

تم الحصول على حقوق النشر من الناشر المذكور.

إن استخدام المواد الموجودة على موقع معهد الدراسات الإسماعيلية يشير إلى القبول بشروط معهد الدراسات الإسماعيلية لإستخدام هذه المواد. كل نسخة من المقال يجب أن تحتوي على نفس نص حقوق النشر التي تظهر على الشاشة أو التي تظهر في الملف الذي يتم تحميله من الموقع. بالنسبة للأعمال المنشورة فإنه من الأفضل التقدم بطلب الإذن من المؤلف الأصلي والناشر لإستخدام (أو إعادة استخدام) المعلومات ودائماً ذكر أسماء المؤلفين ومصادر المعلومات.

ميتافيزيقية حوار الأديان: وجهة نظر قرآنية

الدكتور رضا شاه- كاظمي

جدول المحتويات

● المقدمة

● الجزء الأول

- الوحدة والهوية والذات
- عصب العمامة
- ميتافيزيقية الوجدانية
- الأنا الإلهية
- سريع الزوال
- الله المتعال
- الإحاطة بالنسبية
- الله قريب
- يَعْرِفُ اللهُ نَفْسَهُ
- ضرورة التنوع البشري
- حتمية الحوار
- التوحيد الحقيقي
- وجه الله
- الأسس الروحية للتسامح والإحترام

● الجزء الثاني

- المعنى الشامل 'للإسلام'
- الدين المطلق
- الفطرة- الطهارة البدائية
- موسى والخضر- المعرفة الظاهرية والباطنية
- الإسلام شامل كل الوحي
- تنوع السبل هو إرادة إلهية
- الخلاص وعد للمؤمنين
- دحض الحصرية والقومية الدينية
- احذر تحجيم الله تبعاً للمعتقدات الفردية
- مبدأ النقض
- الشمولية مقابل الخصوصية
- الأماكن التي يبتهل فيها إلى الله
- عبير المحبوب الشامل
- الحوار الروحي بالرغم من الاختلافات اللاهوتية

- معالجة الآيات الجدلية في القرآن
- التأكيد على ما يوحد

مقدمة

أود أن أبدأ حديثي بالإعراب عن خالص الإمتنان للبروفيسور جيمس كسنجر لدعوتي لهذا المؤتمر وعلى كل ما قدمه من العمل الشاق والتنظيم الدقيق وكرم الضيافة. وفي الواقع إنه لشرف لي أن أكون حاضراً في لقاء كهذا، وإنه لشرف خاص أن أكون قادراً على التحدث في حضور اثنين من العلماء الذين أعتبرهم أساتذتي، وهما البروفيسور نصر والبروفيسور شيتيك، والذين قدموا مساهمات بارزة في حقل الروحانية الإسلامية، إنني ممتن للغاية.

عندما دعاني البروفيسور كسنجر لتقديم دراسة في هذا المؤتمر، قررت بعد بعض التفكير أن أعنون موضوعي بالقرآن كمصدر إلهام للحوار بين الأديان. اتخذت هذا القرار ليس لأنني خبير في القرآن؛ فأنا ما زلت في بداياتي الأكاديمية في دراسة النص المقدس. ولكنني قررت هذا الموضوع لأنني شعرت أن الأبعاد الميتافيزيقية والروحية للقرآن، وخصوصاً وفق ما جاء في تقاليد الصوفية، لديها الكثير لتقدمه لأولئك الضالعين في الحوار الديني؛ وأولئك، على وجه الخصوص، الذين يرون الأديان المختلفة 'كطرق مختلفة إلى القلب'.

لم أدرك كم سيغدو عاجلاً على جميع المسلمين أن يسلطوا الضوء داخل أنفسهم والآخرين على روحانية وعالمية القرآن. وقد أثارت الأحداث المأساوية الأخيرة والمستمرة نقاشاً ساخناً حول طبيعة دين الإسلام، وبالطبع، الرسالة الأساسية للكتاب المقدس. ولذلك قمت بتعديل الجزء الأول من الدراسة من أجل التركيز بشكل أكبر على الطريقة التي يفهم فيها الخطاب القرآني روحياً، والتي هي علاج فعال لهذا السم من التعصب الديني وقوة فعالة لروح الإنسجام بين الأديان.

سأطرق بإختصار شديد في هذا الجزء الأول من الدراسة على مواضيع أساسية معينة في الصوفية- الغنوصية أو المعرفة، المتأصلة في الرسالة القرآنية، وسوف أشير بإيجاز إلى بعض آثارها على الوصول إلى 'الآخر'؛ والهدف من الجزء الثاني من الحديث هو إظهار كيف يفتح التصور الروحي لجوهر الإسلام الطريق المؤدي إلى جوهر الدين. وأخيراً، سأقدم سلسلة من آيات القرآن التي تدعم النظرة الجوهرية للدين والتي من الواضح أنها تستبعد ما يطلق عليه فريتيوف شوفان 'بالقومية الدينية'- وهي الفكرة التي تقول بأن ديناً واحداً فقط هو الدين الحقيقي وذلك لإستبعاد وإقصاء كل الآخرين.

الجزء الأول

الوحدة والهوية والذات

يمكن اعتبار المذاهب الصوفية الميتافيزيقية كتطويرات وإيضاحات للرسالة الأساسية للقرآن، وهي مبدأ التوحيد، والذي يُعبر عنه من خلال عبارة 'لا إله إلا الله'. في حين أن هذه العبارة لاهوتياً هي بمثابة تأكيد واضح على وحدانية الله، وإنكار الألوهية عن 'الآخرين'، فإنها تُقرأ ميتافيزيقياً كتأكيد على الطبيعة الحقيقية للوجود- لا حقيقة سوى الحقيقة الواحدة. وبالتالي، يتحول التوحيد 'اللاهوتي' إلى التوحيد 'الوجودي'، وهذه هي عقيدة وحدانية الوجود التي ترتبط بشكل خاص بمدرسة ابن عربي.

بالرغم من أن وجهات النظر الصوفية الميتافيزيقية عن الرسالة المركزية القرآنية حول التوحيد تبدو مصدر إهتمام بالنسبة للصوفيين ذوي التوجه الأخرى والإستقرائي فقط، إلا أنها في الواقع على صلة وثيقة تماماً بموضوع الحوار. وعلى الأخص، يمكن أن تكون مضامين التوحيد فيما يتعلق بمفاهيم 'النفس' و'الآخرة' ذات قيمة لا تقدر بثمن في المساعدة للتغلب على واحدة من العقبات الرئيسية لحوار حقيقي ومثمر في عالم متعدد الأديان اليوم.

عصب العمامة

تكمن هذه العقبة في مفهوم 'الهوية' أو 'الخصوصية' والتي أصبحت غامضة، وجامدة ومتحجرة. وعندما تغدو النفس معياراً مطلقاً للتعامل مع الآخر، فسرعان ما تبرز فكرة خانقة حول الهوية والتي تغذي مباشرة الشوفينية والتعصب الأعمى- هذه الصفات التي تعبر عنها الكلمة العربية 'تعصب'. و تعبر هذه الكلمة بيانياً في معناها الجذري الإنغماس الذاتي الذي يشكل شريان الحياة بالنسبة لجميع أشكال التعصب: يعني التعصب في المقام الأول تغطية الرأس بالعصبة (العمامة).

يصبح المرء ملتقاً على نفسه بالعنى الحرفي للكلمة، حيث توافق كل لفظة من لفات العمامة الإنشغال الأولي في إطار الهوية المتحجر؛ ويغدو المرء مسجوناً داخل 'النسيج' العقلي الذي يحكيه تحيزه الخاص به؛ وكلما تضخم الرأس يضيق العقل. ولا حاجة للقول، بأن هذا ليس له علاقة بالرمزية الإيجابية لهذا الشكل المحترم من غطاء الرأس، وهو العمامة.

إذا كان 'للأنا' أن تعرّف بطريقة شبه مطلقة بالذات والأسرة والأمة، أو حتى بالدين الذي ينتمي إليه الفرد، فإن 'الآخر' - وعلى أي مستوى كان- سيعطى بالمثل الطابع شبه المطلق. تسهم مثل هذه المفاهيم الحصرية عن 'النفس' و'الآخر' تماماً في ديناميكيات الريبة والخوف والتعصب والصراع.

ميثافيزيقية الوجدانية

ومن ناحية أخرى، فإن الميثافيزيقيا، أو علم الوجدانية، لا تلغي بقدر ما تخفف، ولا تعادل ولكنها تموضع، المفاهيم المحدودة عن الهوية. إنها تساهم في جعل كل مفهوم يمكن تصوّره عن الهوية نسبياً في مواجهة المطلق، وبعبارة أخرى، فإنها تضمن عدم جعل أي مفهوم محدد ورسمي 'لنفس'، أو 'العبادة'، كمفهوم مطلق كما وتضمن عدم تقديسه ولو بشكل غير واع. يمكن اعتبار ميثافيزيقية التوحيد أكثر ترياق إكتمالاً وفعالية ضد التعصب بقدر ما تضعف من وثنية الأنا، وهذا نوع من الوثنية يتلخص بشكل مقتضب في السؤال القرآني: "أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا" (25:43؛ مماثلة تقريباً للآية 45:23).

يقول الله في القرآن لموسى عند تجليه له عند احتراق الشجرة، "إني أنا الله". يأتي التعليق التالي ذو الأهمية البالغة من الإمام الشيعي السادس، جعفر الصادق، والذي يعتبر في التراث الصوفي كأحد 'الأقطاب' أو أحد المرجعيات التشريعية العليا للأجيال الأولى. جاء هذا التعليق في تفسير كان له تأثير عميق على العقائد الصوفية التي ظهرت لاحقاً.

الأنا الإلهية

'ليس من المناسب لأحد غير الله أن يتحدث عن نفسه بإستخدام كلمات كهذه، 'إني أنا'. أنا [موسى، وفقاً لتعليق الصادق] أصبت بالذهول والفناء. قلت عندها: 'أنت! أنت هو الأبدى، والذي سيبقى أبدي، وموسى ليس له مكان معك وليس لديه الجرأة ليتكلم، إلا إن سمحت له بالبقاء 'ببقائك'.'"

يُعرّف الخراز، وهو مفسر مهم مبكر آخر للمذهب الصوفي، المعرفة أو الغنوص، بالنسبة لمبدأ 'الأنا' الإلهية: "الله وحده له الحق في أن يقول 'أنا'. ولن يصل أي من يقول 'أنا' إلى مستوى الغنوص."

سريع الزوال

ولكن قد يعترض البعض هنا بأن مثل هذه المثل الميثافيزيقية السامية والحالات الروحية التي ندعو إليها يمكن أن تخص عدداً قليلاً من المتصوفة، والآخرين ذوي الإنجازات العظيمة. هل يمكن للناس العاديين المهتمين بالحوار والتعايش في العالم الحديث أن يستفيدوا حقاً من وجهات نظر كهذه؟ سنجيب

مباشرة بالتأكيد. لا تساعد هذه المبادئ فقط- وحتى على المستوى المنطقي- في تبديد التركيز على الأنا التي تبعث على التفاخر والتكبر، على المستويين الفردي والجماعي، وحسب ولكن أيضاً، وبشكل مباشر، يمكن أن تبعث الآيات من القرآن الكريم التي تنبثق عنها هذه المبادئ ووجهات النظر، في قلب القارئ المتلقي، شعوراً عميقاً بأن كل شيء زائل، بما في ذلك، وعلى وجه الخصوص، الأنا وامتداداتها المتنشعبة.

نورد فيما يلي أهم اثنتين من بين هذه الآيات:

"كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ" (28:88).

"كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ؛ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ" (55: 26- 27)

الله المتعال

وتجدر هنا ملاحظة أن الفعلين الذين يشيران إلى طابع الزوال لجميع الأشياء، 'هالك'، و 'فان' - كلاهما في الزمن المضارع : وهذا معناه أن الأمور لن تنتهي إلى العدم أو الموت في مرحلة لاحقة من الزمن، ولكن في واقع الأمر، 'ستزول'، هنا والآن أمام أعيننا. وإن الذي لن يكون هو بالفعل 'غير كائن'، بمعنى محدد، وإدراك المرء لهذا ليس فقط في لحظات لا توصف من التجربة الصوفية، وإنما أيضاً من خلال نفس الأسلوب المستخدم لفهم المبدأ التالي: إن الحقيقة ليست عرضة للانتهاء، أو الإلغاء، أو الإنقراض، أو عدم الوجود. إن ما هو حقيقي مطلق هو أبدي: إنه وجه الخالق، والذي يوجد وحده. وعلى العكس، كل ما هو زائل، بحكم هذه الحقيقة بالذات، هو غير حقيقي في التحليل النهائي.

الإحاطة بالنسبية

يمكن أن يزيد التعمن بالآيات أعلاه من الشعور بنسبية كل شيء- وعلى الأخص، الأنا- في وجه الحقيقة الواحدة والمنفردة والخاصة. بدلاً من السماح لمفهوم أناني للأناية ليكون له الغلبة على الدين وحتى على الله، فإن وجهة نظر كهذه تساعد على تكوين توجه معاكس: لرؤية الأنا نفسها للأناواع الفرعية الخالدة، من جانب الخلود. إن ما ينتج عن هذا هو فهم قوي للقيود الأساسية للنفس: فاللامح التي تحدد وتعرف الأنا تُدرك بشكل أكثر وضوحاً مقارنة بالخلفية اللانهائية.

وبالتالي، ما يتضمنه السؤال هنا ليس فقط المفهوم الصوفي الغامض للوهم العالمي ولكن الشعور الملموس والواقعي والفعلي للأبعاد الروحية. لقد تم الكشف عن القيود- الوجودية- والذرائع - النفسية- لأننا وأصبح التركيز الواعي على اللاهوت يحل مكان التركيز المتمحور حول الذات اللاواعية الغالبة: لا شيء مطلق غير المطلق. وهنا يكمن الدرس الأول الكبير الذي يقدمه الغنوص الصوفي لأولئك الذين يعملون في الحوار؛ درس سلبي، وهو، إنكار الذاتية، والتي تمثل أحد المحركات الأساسية للتعصب.

الله قريب

وبالنسبة للدرس الثاني، هذه هي الإيجابية التي تناسب من الجانب المكمل للغنوص، والذي هو الوجود أو البقاء الذي يأتي بعد الفناء. وهذا متعلق بموضوع القرب الجوهرى. وفي الواقع لا تؤكد الآيات المذكورة أعلاه على الحقيقة الحصرية لله فقط؛ بل وتحتوي أيضاً على إشارة خفية إلى الشمولية الإلهية.

إن وجه الله الوحيد الباقي ليس فقط بالجواهر الإلهي، المتعال، الذي بالنسبة له كل الأشياء لا شيء؛ بل هو أيضاً الوجود الجوهرى الذي يمتد و يشمل كل شيء، ويشكل في الواقع وجودها الحقيقي. ينبغي قراءة الآيات الست التالية بتمعن، فهي تشير إلى هذا البعد الشامل المكمل للحقيقة الإلهية.

"وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ" (2: 115)

"وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ" (4: 57)

"وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسَّوَسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ" (50: 16)

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ" (8: 24)

"أَلَا إِلَهُهُمْ فِي مَرِيَّةٍ مِّنْ لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ" (41: 54)

تتضمن كل هذه الآيات بذور أكثر المذاهب الروحية العظيمة؛ ولقد أعطت كل منها نهضة لأكثر التأملات خصوصية عن الحقيقة الأكثر غموضاً من بين جميع الحقائق، جوهرية المطلق في كل ما هو موجود؛ من كل ما هو، من وجهة نظر أخرى "غير الله".

يَعْرِفُ اللهُ نَفْسَهُ

من الجدير لتركيز لفترة وجيزة على فعل النسبية، أو 'الآخر' في ما يتعلق بالله قبل النظر في مسألة الحضور الإلهي في ما يتعلق بالحوار، لأن لهذا أيضاً أهمية بالنسبة للحوار. هذا 'الآخر' موضح من قبل ابن عربي في المكان الذي يكشف الله عن نفسه لنفسه، "إن رؤية الشيء لنفسه بنفسه، مختلف عن رؤيته لنفسه في الآخر، كما لو كان في المرأة".

إن فعل 'الآخر' الواضح، على مستوى الكشف عن الذات الإلهية، هو تمكين الوصول لوضع خاص من معرفة الذات. يتذكر المرء 'الحديث القدسي'، الجوهرية بالنسبة للروحانية الصوفية: "كنت كنزاً خفياً، وأحببت أن أكون معروفاً، فخلقت الخلق". وهنا، يمكن للمرء أن يجرؤ على القول، يكمن النموذج الأصلي الميتافيزيقي المطلق لكل أنواع 'الحوار'. ما لدينا هنا هو نوع من 'الحوار' أو الإتصال بين الجوانب المختلفة للمطلق، حوار بوساطة النسبية.

ضرورة التنوع البشري

والآن، إذا كان خلق الكون ينبع من الحب الإلهي لوضع متميز من معرفة الذات، فإن القرآن يشير إلى أن التنوع داخل الجنس البشري، فيما يتعلق بنوع الجنس، والقبيلة والعرق، تخدم كنوع من المعرفة:

"يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ" (49: 13)

يتم التأكيد هنا على أن التميز والاختلاف هما إرادة إلهية، وهي وسائل يتم من خلالها تحقيق المعرفة. تجدر الإشارة إلى أن الكلمة التي تعبر عن معرفة أحد للآخر، 'تعارفوا'، والكلمة التي تعني أن تغدو معروفاً كما ورد في الحديث القدسي، 'عُرِفَ'، تشتق من الجذر نفسه، 'عَرَفَ'، وترتبط بمعنى المعرفة الروحية أو الغنوص، وهو الجوهر الذي عبر عنه في الحديث الشهير، 'من عرف نفسه

عرف ربه'. وهكذا، تتشابه معرفة الذات ومعرفة الآخر ومعرفة الله، وينبغي أن ينظر إليها على أنها مكملة ويعزز بعضها بعضاً، كل عنصر منها له دور يلعبه في تحقيق 'المعرفة' الروحية.

حتمية الحوار

تُقدم الآية أعلاه غالباً كبرهان على التمسك بضرورة الحوار، وترسيخ مبدأ التعايش السلمي، وتشير إلى الأمر الإلهي بالتنوع البشري. وفي حين تدعم هذه الآية في الواقع مبادئ كهذه، فإن معناها يعمق، وتكون رسالتها أكثر إلزاماً وهدفها بعيد المدى، عندما ترتبط بوعي مع المبدأ الميتافيزيقي لمعرفة الذات من خلال كشف الذات الإلهية. وبالتالي، فإن الحوار هنا- أدناه- الحوار المتجذر في الرغبة الصادقة للمزيد من المعرفة والفهم 'للآخر' والنفس - يمكن أن يكون بمثابة انعكاس ومشاركة في العملية ذاتها والتي بواسطتها يعرف الله نفسه بطريقة مميزة ومختلفة؛ وهذا ليس من ناحية جوهره الأبدي المتفرد، ولكن من ناحية ظهور 'الكنز' المتضمن أو 'المخبأ' ضمن هذا الجوهر.

لا يوجد شيء في الخلق لا يطيع هذه الحتمية الوجودية 'لجعل الكنز الإلهي معروفاً'. يشير القرآن مراراً وتكراراً لأحكام هذا القانون الكوني، وذلك من خلال الثناء والتمجيد:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ لَهْمَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْطَّيْرِ صَافَاتٍ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (24/41)

التوحيد الحقيقي

نعود الآن إلى موضوع الحضور الإلهي. تشير الآية المذكورة سابقاً، 'كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ؛ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ'، إلى كل من التعالي والقرب. ويبدو هذا واضحاً في تفسير الغزالي المشهور لهذه الآية. حيث يرى الغنوص الأعلى، على حد قوله، أن لكل شيء وجهان، أحدهما مرتبط بالنفس، والآخر متعلق بالله؛ إنه وجه الله في كل الأشياء الحقيقية؛ وهذا هو الوجه الإلهي الذي يراه الغنوص في تحقيق 'الفناء'. كل التعددات تفنى ويبقى التفرد المطلق. يقول الغزالي أن هذا ما يسمى في لغة الواقع، 'التوحيد'، أي يجعله واحد حقاً.

وقد يُسأل هنا: أليس هناك تناقض بين الفناء للتعدد الهائل الذي دعا إليه أعمق مستوى من التوحيد والتأكيد على التعددية الإنسانية في خلق الله؟ الطريقة الوحيدة لتحويل هذا التناقض الواضح إلى تعبير عن الروحانية العظيمة تكون من خلال التشديد على مبدأ 'وجه' الله في كل شيء.

وجه الله

هؤلاء المتصوفة الفانون حتى 'الوجه' الخاص بهم- الفانون من عدم وجودهم- يعودون للحياة من خلال الوجه الإلهي الذي يمثل واقعهم الحقيقي، ومن خلال تجلي حضور الله في داخلهم وفي كل ما هو موجود أيضاً: "فَأَيْنَمَا تُولُؤُوا قَتَمَ وَجْهُ اللَّهِ". والآن فإن هذا الجانب الإلهي بالضبط، في كل الأشياء، وعند كل الشعوب والناس، يصبح واضحاً عندما يفهم هذا المستوى من 'التوحيد' بشكل صحيح.

لا يحتاج المرء أن يجرب نعمة الفناء الصوفي لفهم هذا المبدأ؛ وكما يقول الغزالي، يمكن للمرء أن يصل إلى هذا المبدأ ليس فقط من خلال 'الدوق' أو التجربة الصوفية، ولكن أيضاً من خلال 'عرفان العميان'، كنوع من المعرفة الإدراكية. إذا كان الإدراك الباطني لهذا المبدأ يقدم 'ذوقاً' في 'التوحيد'، يمكننا القول بناءً على قول الغزالي، بأن الإستيعاب الفكري لهذا المبدأ يمنح 'للتوحيد' 'عبقاً'.

إذا ما كان بالإمكان إدراك الدرجة الباطنية المطلقة من 'التوحيد' إلا من خلال الفناء، فإن الدرجات الأدنى تعني على الأقل أن 'العطر' أو الرؤية المسبقة للفناء الباطني والتي تتكون من الطمس الذاتي، هي القنوات والتواضع. والآن فإن الإستيعاب الفكري لهذه الرؤية للوحدة مع التوجه نحو القنوات الذي تتطلبه، هو بالتأكيد كافٍ لحل عقد الأنانية التي تشكل جوهر 'التعصب' لكل أشكال التطرف.

وبالتالي فإن ماينتج عن فهم عمق آثار 'التوحيد'، هو نظرة روحية متسامية: وهذا يعني إحساس بعدمية الشخص أمام الحقيقة الإلهية وأيضاً القداسة الفطرية، 'الوجه' الإلهي، ضمن 'الجوار'. إن الحقيقة الإلهية المتسامية والتي يفتي المرء أمامها معروفة بحضورها الغامض في 'الآخر'. يلاحظ المرء هنا بأن الدعامة الروحية لتلك العلاقة الهامة والتي تشدد عليها الأخلاق الصوفية، بين القنوات والكرم، وبين طمس الذات وتقديم الذات؛ الأولى هي نوع من الفناء في الصيغة الأخلاقية والثانية هي التعبير الأخلاقي أو ملازمة 'للتوحيد'.

الأسس الروحية للتسامح والإحترام

يزداد احترام الشخص للجوار عمقاً نتيجة لإدراك الوجود الإلهي ضمن وماوراء نفسه وجواره. ويمكن للمرء القول أنه تكمن هنا أحد الأسس الروحية للأدب، مدركين من خلال فهم هذه الكلمة الإحترام العميق إذا لم يكن التبجيل 'لآخر' والذي يشكل المادة الحقيقية لكل ما هو خارجي، وهذه صيغ إجتماعية لقواعد اللياقة، وأخلاق حميدة ولباقة تجاه الجوار.

وهكذا يرى المرء، بأن التسامح ذو الجذور العميقة والمدى الواسع هو نتيجة 'للوحدة الميتافيزيقية' أكثر منه 'للتعددية الدينية'، إن هذا التسامح ليس مصاعاً بشكل قانون ليطيعه المرء أو يخرقه كما يشاء؛ لكن مايتبين هو نمط من التسامح مرتبط عضوياً بفهم للحضور الإلهي في جميع الأشياء، فهم للقداسة الداخلية لكل الموجودات.

الجزء الثاني

المعنى الشامل 'للإسلام'

في هذا الجزء الثاني من الحديث أود أن أبدأ بالتأكيد على أحد جوانب معنى كلمة إسلام، ومعناها الحرفي التسليم، ولأظهر كيف يأخذ هذا المعنى الديني، من خلال النظرة الصوفية للقرآن، أسبقية فوق هذا الدين أو ذلك.

ووفقاً لمحمد أسد، أحد أكثر مترجمي القرآن تقديراً، كانت كلمة 'الإسلام' قد فهمت من قبل سامعي الكلمة في زمن الوحي القرآني من خلال معناها الشامل وليس المستخدم من قبل العوام. يظهر هذا المعنى بوضوح في آيات متعددة تحتوي على كلمات مسلم وإسلام. وفي الآية التالية، يتساوى مبدأ الإسلام الشامل مع دين الله:

"أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبِغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ" (3/83).

الدين المطلق

يساعد المفسر الكاشاني مستخدماً أقصى درجات الوضوح لتحديد طبيعة دين الله. يقوم بذلك في تفسيره الباطني لمجموعتين من الآيات. أولاً، نسبة إلى الآية التي تعلن بأن الدين الذي وهب للنبي محمد هو نفس الدين الذي وهب لأسلافه:

"شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ" (42: 13).

يعلق الكاشاني:

"شرع الله لكم الدين المطلق، والذي أوصى الله كل أنبياءه بإقامته، وأن يكونوا متفقيين غير متفرقين. هذا هو مفهوم 'أصل الدين'... وهذا دون فروع الشريعة، والتي يميز بها الأنبياء جذور الدين؛ يحدث هذا التمييز بالاتفاق على ما هو عظيم الفائدة في الأوضاع المختلفة مثال ذلك وصف أفعال الطاعة والعبادة والتواصل الإجتماعي. كما يقول الله تعالى: "الْكُلُّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا" (5: 48).

إن الفرق بين الدين 'المطلق' أو الغير مشروط والصيغ المختلفة التي يمكن لهذا الجوهر الفريد أن يأخذها موصوف من قبل الكاشاني من خلال الديمومة أو اللامتغير. يتابع:

"وبذلك فإن الدين القيوم مرتبط بما لا يتغير في العلم والمعرفة؛ بينما ترتبط الشريعة بذلك المتغير في مجال الأحكام والشروط."

يشرح الكاشاني طبيعة هذا الدين اللامتغير مع إتصاله الأساسي 'بفطرة' الإنسان، في تفسيره النير لهذه الآية الهامة:

"فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ." (30: 30).

يشرح الكاشاني:

"اجعل هدفك دين 'التوحيد'، وهذا هو الطريق 'طريق الحق'... أو 'الدين المطلق'. والذي أي دين دونه ليس 'ديناً'، لأنه منفصل عن [الطريق الذي يؤدي إلى] تحقيق الهدف. الهدف [أو 'الوجه'، في الآية التي يتم تفسيرها] يشير إلى وجود الجوهر، وكل ما يصاحبه وصفاته العرضية؛ وبتحديد الدين

فهو يفصله عن كل ماهو ليس الطريق الحق، والمستقيم 'بالتوحيد'، والتوقف عند طريق الحق، بدون الإلتباه إلى نفسه أو إلى الآخرين، وبذلك يكون هذا هو الطريق إلى الله؛ ودينه وطريقه سيكون الدين والطريق إلى الله، حيث لا يرى شيئاً سوى وجود الله."

الفطرة- الطهارة البدائية

"ذلك بأنهم متشبثون 'بفطرة الله'، وهي الحالة التي خلقت حقيقة البشرية وفقاً لها- الطهارة الأبديّة وصفاء النفس- وهذا هو الدين القيم في الأزل بدون بداية أو نهاية، لا يتغير أو لا يتميز عن النقاء الأصلي أو عن 'التوحيد' البدائي".

'الفطرة' ويتم شرحها بأنها نتيجة 'الفيض الأقدس' للجوهر الإلهي؛ ولا يمكن لأحد من أولئك المخلصين لهذه الطبيعة الأصلية الانحراف عن التوحيد أو أن يُحجّبوا عن حقيقة الله بوجود الظواهر. يستشهد الكاشاني 'بالحديث': "مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ"، ولكن بعدئذ يضيف هذه الفكرة المهمة: "إن الأمر ليس بأن تغير الحقيقة الكامنة بنفسها، لأن ذلك مستحيل. هذا هو معنى كلمات الله 'لَا تَبْدِيلَ لَخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ'".

ويمكن تصور 'الفطرة' هنا كتشابه جوهري- أو 'نبوي'- بين أعماق الأبعاد للنفس البشرية وأعلى درجات الحقيقة المعبر عنها من خلال الوحي الإلهي؛ أظهر مادة تنعكس خلالها بإنسجام أعماق الحقائق الموهوبة من الأعلى.

موسى والخضر- المعرفة الظاهرية والباطنية

من المهم قبل التوسع في مفهوم أساسيات الدين، أو الدين من خلال الإشارة لآيات قرآنية محددة، أن ننوه باختصار إلى التجربة القرآنية، أو القصة القرآنية بين موسى والشخصية الغامضة الخضر والذي لم يذكر بهذا الاسم في القرآن. تشير القصة، حتى بجانبها الحرفي، إلى التمييز بين ظاهر الدين وسمو جوهره، وبين المعرفة الظاهرية والباطنية. يخرق الخضر أشكالاً محددة للأحكام والأعراف الاجتماعية، حيث يتلقى وحياً إلهياً مباشراً فيما يتعلق بحقائق غير مرئية حول الحالات التي يتم من خلالها هذا الخرق.

أحد الإستخدامات التي يطرح بها ابن العربي هذه القصة تؤكد على هذه الطبيعة الباطنية. حيث يربطها بالمعتقد الهام الذي ينادي به والذي غالباً ما أسيئ فهمه والمتمثل بتفوق 'الولاية' على 'النبوة'. تحتل الولاية مركزاً أعلى لأن المعرفة المناسبة لها عالمية، بينما النبوة هي أقل مرتبة لأن المعرفة المتكونة منها إلى حد ما محددة برسالة معينة. لكن السؤال هنا يكمن في الأولوية الرئيسية وليس التفوق الشخصي: الولاية أكثر عالمية من النبوة، ولكن النبي دائماً متفوق على الولي، حيث أن ولاية النبي هي مصدر ولاية الولي. ووفقاً لابن عربي، فإن اللقاء بين موسى و الخضر يفهم بشكل مصغر: يمثل الخضر نمطاً من الإدراك العالمي داخل روح موسى، الذي يتجاوز إدراكه إدراك الرسول. إن هذا المذهب معقد ولكنه هام، والذي يؤكد بوضوح نسبية الشريعة الصادرة في مواجهة روحها العالمية الداخلية، ونحن بحاجة إلى إدراك هذا، ضمن هذا السياق.

يشمل الإسلام كل الوحي

والآن، دعنا نتمعن بآيات قرآنية أكثر وضوحاً لشرح هذا الدين الأساسي:

"قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ"

وبعد ذلك تأتي هذه الآية:

"وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ." (3: 84-85)

والآن وحيث أن هذه الجملة الأخيرة تفهم كتأييد للشرعية الخاصة للإسلام، والمعرّف على أنه الدين الذي أوحى على آخر رسل الله، يمكن أيضاً رؤيتها كمبرهن على الشرعية الجوهرية لكل الوحي المنزل على الأنبياء المشار إليهم في الآية السابقة. وهكذا فإن "الإسلام" شامل لكل الوحي والذي يمكن أيضاً رؤيته كأوجه كثيرة ومتعددة للحقيقة الإلهية الواحدة أساساً ولها نفس الكشف الذاتي.

يتم التأكيد بوضوح على كلية هذه الهداية من خلال التوحيد في الآيات التالية:

"وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ." (10: 47)

"وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ." (40: 78)

"وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُون." (21: 25)

"مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ." (41: 43)

تنوع السبل إرادة إلهية

إن مفهوم "الدين الاساسي" أو الدين على هذا النحو، والبعيد عن محو الاختلافات بين الأديان، يفترض في الواقع تنوعاً دينياً، ولا يعتبر هذه الاختلافات مؤسفة بل ينظر لها على أنها إرادة إلهية ضرورية. وتؤيد الآيات التالية هذا المفهوم الذي يدرك الجوهر الداخلي للدين، من جهة، ويؤكد ضرورة التمسك بإملاءات دين واحد معين، من الجهة الأخرى.

"إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُوا أَوْامِرَ اللَّهِ وَارْجِعُوا إِلَى اللَّهِ فَإِنَّهُ هُوَ الْبَاسِقُ الَّذِي يَخْتَارُ لَكُمْ أَمْرًا وَإِن كُنْتُمْ لَاحِقِينَ فِي شَيْءٍ مِّنْ أَمْرِ اللَّهِ فَارْجِعُوهُ إِلَى اللَّهِ فَإِنَّهُ هُوَ الْبَاسِقُ الَّذِي يَخْتَارُ لَكُمْ أَمْرًا وَإِن كُنْتُمْ لَاحِقِينَ فِي شَيْءٍ مِّنْ أَمْرِ اللَّهِ فَارْجِعُوهُ إِلَى اللَّهِ فَإِنَّهُ هُوَ الْبَاسِقُ الَّذِي يَخْتَارُ لَكُمْ أَمْرًا" (48: 5)

"إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُوا أَوْامِرَ اللَّهِ وَارْجِعُوا إِلَى اللَّهِ فَإِنَّهُ هُوَ الْبَاسِقُ الَّذِي يَخْتَارُ لَكُمْ أَمْرًا" (22: 67)

الخلاص وعد للمؤمنون

تعطي آية مهمة أخرى تعريفاً مقتضياً لما يشكل هذا الدين الباطني الأساسي. تبرز هذه الآية أيضاً كواحدة من أكثر النصوص الإثباتية في القرآن أهمية، لتأييد مبدأ أن الوصول إلى النجاة هو ليس حكراً على الإسلام كدين خاص:

"إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ." (2: 62)

دحض الحصرية والقومية الدينية

إن السلوك المُعزّز بتعريف شامل للنجاة كهذا تدعمه آيات أخرى تنتقد بشكل صريح القومية الدينية على سبيل المثال:

"وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ." (2: 111-112)

تأتي هذه الآية كدحض لا لبس فيه للحصرية الغير مبررة. فهي لا تنقض الإدعاءات الحصرية لليهود والمسيحيين بحصرية خاصة بها، بالقول أن المسلمين فقط، بشكل خاص، يخلصون إلى الجنة. إن الوصول للنجاة بعيد كل البعد عن حصره بنطاق ضيق بالإشارة إلى من لهم الأفضلية في مجموعة أخرى، وفي الحقيقة هو واسع وشامل: أولئك الذين يحصلون على النجاة ويدخلون الجنة هم الذين يسلمون بإخلاص لله وهم يتمتعون بالفضيلة جوهرياً. الإيمان المرتبط بالفضيلة: هكذا هي المستلزمات التي لا غنى عنها للنجاة.

وهكذا، فإنه المبرر تماماً النقاش بأن الآية لا ترد في الشكل على الحصرية التي يقول بها أهل الكتاب ولكنها تعطي الجواب على مستوى مختلف بشكل كامل، مستوى فوق ديني أو ميثاقيزيقي، يتجاوز كل التعاريف المرسخة، والطوائف المذهبية، والولاءات الطائفية والانتماءات الحزبية.

يُعزّز هذا المفهوم فوق المذهبي في الآيات التالية:

"لَيْسَ بِأَمَانِيَّتِكُمْ وَلَا أَمَانِيَّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا."

"وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا"

"وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا." (4: 124-125)

إذا قرأ المرء هذه الآيات واعتبرها تشير إلى أنه المسلم "يرغب" بأن تكون النجاة تحديداً فقط للمسلمين، فإن هذا الشعور الطائفي، يؤدي تماماً إلى نفس الحصرية التي يتهم بها المسيحيين واليهود. يجب الإشارة إلى أن الكلمة نفسها قد استخدمت لرغبات اليهود والمسيحيين، ولرغبات المسلمين، 'الأماني'.

احذر تحجيم الله تبعاً للمعتقدات الفردية

وبالتالي، فإن تحذير ابن عربي المشهور ضد تقييد الله بشكل واحد من أشكال الإيمان يأتي موافقاً تماماً لفحوى هذا الخطاب القرآني :

"احذر أن تلزم نفسك بعقيدة معينة وأن ترفض غيرها بإعتباره كفراً! حاول أن تجعل نفسك طيعة لجميع أشكال المعتقدات الدينية. الله أكبر وأوسع من أن يقتصر على عقيدة واحدة مع إستبعاد العقائد الأخرى. لأن الله تعالى يقول: "فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ".

مبدأ النقض

يمكن أن ننقل أيضاً إلى ابن عربي للحصول على أكثر نتيجة صوفية ارضاءً للمفهوم القانوني التقليدي لنقض الديانات الأخرى من قبل الإسلام. يسلط البروفسور شيتك في كتابه الأخير عن ابن عربي ومشكلة التنوع الديني الضوء على هذه النقطة المهمة. في عمل جدلي رائع، يحول ابن عربي كل مذاهب النقض من كونها أساساً لرفض الديانات الأخرى إلى حجة لصحة الأديان الأخرى: للحصول على واحدة من الأسباب البارزة لمرحلة ما قبل الإسلام على وجه التحديد هي حقيقة أن المسلمين أمروا أن يؤمنوا بجميع الرسل السابقين وليس فقط بنبي الإسلام:

"إن جميع الشرائع السماوية أنوار. ومن بين هذه الشرائع، فإن الشرع الذي كشفه محمد هو مثل ضوء الشمس بين أضواء النجوم. عندما تظهر الشمس، تختفي أضواء النجوم، وتنضم أضواءها إلى ضوء الشمس. إن كونها مختفية هو مثل نقض الأديان السماوية الأخرى والذي يحدث من خلال كشف دين محمد. ومع ذلك، فهي توجد في الواقع، تماماً مثل وجود أضواء النجوم. وهذا يفسر لماذا أصبح لزاماً

علينا في الدين الشامل للجميع أن يكون لدينا الايمان بحقيقة جميع الرسل وجميع الأديان السماوية. فهي ليست 'باطلة' بواسطة النقض- فهذا هو رأي الجاهل"

الشمولية مقابل الخصوصية

وأخيراً، يتعين على المرء أن يتصدى لحقيقة أن القرآن يحتوي على آيات ذات طابع انفعالي. كيف يمكن للمرء أن يتعامل معها؟ للإجابة بإيجاز بقدر الإمكان، فإننا نود أن نقول أنه ينبغي إيلاء الأولوية لتلك الآيات التي هي ذات طابع واضح أو طبيعة عالمية، على عكس تلك التي هي بشكل واضح سياقية بطبيعتها: السياقية في المعنى ليس فقط كونها مرتبطة بمواقف محددة يستجيب لها القرآن، ولكن أيضاً سياقية بمعنى كونها تقع بوضوح على مستوى البدائل اللاهوتية، أو الصراع بين الطوائف- نفس المستوى الذي يمكن تجاوزه بالرؤية التي تتكشف من الآيات التي كنا نبحث فيها.

الأماكن التي يبتهل فيها إلى الله

ثانياً، لا يوجد ما يبرر، حتى مع وجود القراءة الحصرية للقرآن، عن أي نوع من التعصب الديني، وبشكل أقل، اضطهاد غير المسلمين. على العكس من ذلك: في الواقع فقد فرض على المسلمين الدفاع عن حياتهم الخاصة إذا لزم الأمر، وكذلك عن الكنائس والمعابد وليس المساجد فقط- وكلها تم وصفها في القرآن كأماكن: "يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا". (22: 40). وينبغي للمرء أن يستشهد في هذا الصدد أيضاً بالأفعال المسجلة تاريخياً من التسامح الذي أبداه النبي نفسه- على سبيل المثال، في معاهدة المدينة، والتي مُنح فيها اليهود حقوقاً متساوية مع المسلمين؛ وفي المعاهدة الموقعة مع رهبان دير القديسة كاترين في سيناء؛ وكذلك على وجه الخصوص الحادثة ذات المعنى الرمزي الرفيع، عندما دعا النبي وفد مسيحيي نجران لأداء طقوس عباداتهم في مسجده نفسه بينما كانوا في وسط سلسلة طويلة من النقاشات اللاهوتية والتي كانت حادة في كثير من الأحيان.

عبر المحبوب الشامل

يلاحظ المرء هنا، في الواقع ، مثلاً رائعاً عن كيف أن الخلاف على مستوى العقيدة يمكن أن يتعايش مع الإحترام العميق على المستوى الأعلى من التدين. وأود أن أعترض هنا وأتحدث عن الرومي قليلاً، المثال هذا من السنة أو الطريقة النبوية والتي تشكل خلفية جيدة تمكن المرء من تقييم الفصل التالي من خطابه الفكري. في الجزء الأول من الكتاب، يتناول بوضوح تأنيبه جرّاح، وهو مسيحي، للإستمرار

بالإيمان ببعض العقائد المسيحية الموروثة، ولا سيما فكرة أن المسيح هو الله، لكن هذا الخلاف على مستوى العقيدة لم يعم الرومي عن رؤيته العظيمة عن كون الروح فوق كل الأشكال الدينية- وهو الموضوع الذي يتكرر كثيراً في شعر الرومي- ولا يمنع الخطاب العملي والإلهام المشترك. ومن كلمات الرومي :

"كنت أتحدث يوماً بين مجموعة من الناس، وطرف من غير المسلمين كان حاضراً. في منتصف حديثي بدأوا في البكاء وإبداء العاطفة والنشوة. سألت أحدهم: 'ماذا يفهمون وماذا يعرفون؟ فواحد من ألف مسلم فقط يفهم هذا النوع من الكلام. ماذا يفهمون، ويجعلهم يكون؟' أجاب السيد [الرومي نفسه]: 'ليس من الضروري أن يدركوا صيغة الخطاب؛ لكنهم يفهمون ما يشكل جذر ومبدأ الخطاب. في النهاية، يعترف كل منهم بوحداية الله، بأنه هو الخالق والرزاق، وأنه يتحكم في كل شيء، وأن كل شيء يرجع إليه، وأنه هو الذي يغفر ويعاقب. وعندما يسمع أي شخص هذه الكلمات، والتي تمثل وصفاً وذكرًا لله، فإن ذلك يؤدي لحدوث ضجة مشتركة ونشوة وجدانية، لأن رائحة محبوبهم وسعيهم يأتي من هذه الكلمات".

الحوار الروحي بالرغم من الاختلافات اللاهوتية

يقدم في هذا المقطع تعريفاً واضحاً عن مفهوم الخلق والحوار الروحي. حيث أن التقبل للروحانية الفطرية، كتلك المتجذرة في 'الفطرة'، يشكل مادة ثابتة للنفس البشرية، ولا تعترف هذه الروحانية الفطرية بأية حدود طائفية. لا ينكر الرومي أن الكثير من المسلمين وغير المسلمين لا يتوافقون على عقائد محددة، بقدر ما يؤكد على صحة الحوار الروحي الحاضر دائماً، وهذا هو نمط الحوار الذي يأتي بالفائدة على الرغم من الخلاف اللاهوتي.

وهذا لأن التقبل المناسب للجوهر الروحي ذو مضمون أعظم من الحدود المتحفظة لجميع المفاهيم العقلية. هذه هي الطريقة التي يمكن للمرء أن يفهم بها العبارة التالية، التي يتم فيها تجاوز كل من الإيمان والكفر بشيء أكثر جوهرية من المستوى الذي يوجد به هذا الإنقسام:

"... كل الناس في قلوبهم العميقة يحبون الله ويسعون للوصول إليه، يصلون له ويضعون الأمور في أملهم فيه، لا يعرفون أحداً سواه قادر على كل شيء ويسوي أمورهم. مثل هذا الإدراك ليس كفراً ولا إيماناً. وليس له أي اسم روحياً."

ويتعزز هذا المنظور في العبارات التالية من نفس الكتاب. يقول الرومي: الصلاة، تتغير من دين إلى دين، ولكن "الإيمان لا يتغير في أي دين؛ وصيغته، وتوجهه وباقي الأمور ثابتة."

"... حب الخالق هو كامن في كل العالم وفي جميع الناس، سواء كانوا من المجوس واليهود أو المسيحيين...."

معالجة الآيات الجدلية في القرآن

الآن، للعودة إلى جدلية الآيات التي يتضمنها القرآن، يجب على المرء موازنتها مع ترتيب القرآن حتى يتسنى الدخول في حوار بناء، ولتجنب النزاع، وذلك لوجود التقوى والإيمان في التقاليد الدينية الأخرى. وهذا موجود، ليس ضمناً فقط، من خلال تفسير الآيات روحياً، ولكن بصراحة أيضاً، كما في الآيات التالية:

"لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ."

"يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ."

"وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ." (3: 113-114).

"لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَسِيصِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ." (5: 82).

وأضاف "وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِير." (42: 15)

وأخيراً:

"ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ." (16: 125).

الآن، بالنسبة لأولئك الذين يرغبون في الدخول في حوار مع الأديان الأخرى وممثليها، فإن السؤال الرئيسي يؤول إلى الطريقة التي يفهم بها المرء ما هو 'الأحسن'. يناقش المرء باستخدام ذكائه الشخصي، ليتحاور مع 'الآخر' المتدين بطريقة تمتاز بالحكمة، وتتوافق بإنسجام أكبر مع السياق المحدد للحالة 'الحوارية' للمُحاور.

التأكيد على ما يوحد

أما بالنسبة للمسلمين الذين يعيشون في الغرب، ففي الوقت الذي لم يكن بديل الحوار متمثلاً بالخطاب القاسي وحسب وإنما أيضاً بالمصادمات العنيفة، فإن ضرورة التركيز على ما يوحد مختلف الأديان، والإرث الروحي المشترك للبشرية، هو في غاية الإلحاح. وهناك أدلة وافرة في النص القرآني نفسه، والتعليقات المقنعة على هذه الآيات من قبل أولئك المعنيين أكثر في التقليد الروحي للإسلام، لإثبات أن القرآن يتيح لنا رؤية شاملة للدين، وبالتالي التفكير في جميع الأديان السماوية 'كآيات' من الله؛ بالإضافة لكونه يفتح آفاقاً للإبداع والحوار البناء بين المؤمنين من جميع الطوائف الدينية المختلفة، على الرغم من تباين أنظمتهم الدينية؛ وكذلك فهو يوفر لنا الأساس للحوار والإثراء المتبادل على مستوى جوهري، ذو قيم ثابتة، ورؤية مبنية على قيم، وإلهام تأملي وإدراك روحي.